

الفصل الثالث

موظف مخلص في إمبراطورية تحتضر

من بين كل الدول الاشتراكية التي أنشأها الاتحاد السوفييتي المنتصر بعد الحرب، بدا أن جمهورية ألمانيا الديموقراطية قد بنت الجنة للعمال التي وعدت بها الشيوعية، وهي فقط التي يديرها القمع والإرهاب بقدر ما تديرها الإيديولوجية. حافظت على شبكة مكونة من 91 ألف موظف، و173 ألفاً على الأقل من المخبرين، وربما أكثر من ذلك، في أمة بلغ تعدادها نحو سبعة عشر مليون نسمة. كتب أحد المؤرخين عن انتشار وزارة أمن الدولة وشموليتها: «لا يستطيع أحد أن يضع مزيداً من الحدود حول ستاسي أكثر من تطويق رائحة في غرفة»¹. بالنسبة إلى فلاديمير بوتين، الذي رُقِّي حديثاً إلى رتبة رائد، يبدو أن الزمن عاد به إلى الوراء؛ فقد عدَّ ألمانيا الشرقية «بلدًا شمولياً قاسياً تحكمها الديكتاتورية بقسوة»²، ولكن ذلك ليس بكثير على الأمة لكونه الجهاز الأمني السائد؛ وكان يحب ذلك كثيراً.

حافظت وكالة الـ(كي جي بي) على حضور هائل لها في ألمانيا الشرقية، في قاعدتها في كارلشورست في برلين، حيث مقر الجيش السوفييتي أيضاً، فكانت توظف مئات العمال خلال الحرب الباردة. ضباط ستاسي الذين كانوا ينادون نظراءهم السوفييت بـ(الأصدقاء الأعزاء)، كانوا يعملان معاً كحلفاء ويتنافسان كخصوم؛ فأنجزت ستاسي كثيراً من الأعمال السياسية لـ(كي جي بي)، ووفرت لها معظم التقارير الاستخباراتية التي تنقل إلى المركز في موسكو، لا من ألمانيا فقط، وإنما من كل الكتلة السوفييتية.

تعاملت الـ(كي جي بي) أيضًا مع (الأصدقاء الأعزاء) بشيء من الحذر الذي استاء منه الألمان؛ فواحدة من أكبر عمليات الـ(كي جي بي)، التي بدأت في السبعينيات في وقت بريجنيف، والتي سميت تشفيرًا باسم LUCH، أو (الشعاع)، جندت خلسة عملاء ألمانيًا للرصد ولتقديم تقارير عن قادتهم في الحزب والمسؤولين الحكوميين، وعن الناس العاديين غير الموالين للقضية السوفييتية³.

وجود الـ(كي جي بي) في برلين هو الأكبر في العالم، وعلى النقيض من ذلك، كان المكتب في دريسدن مركزًا صغيرًا وقاعدة متقدمة لتدبير المكائد في جميع أنحاء العالم. المدينة تقبع على جانبي نهر الإلبي، ولم يكن بها أكثر من ستة موظفين من ضباط المخبرات أو ثمانية، يقع مكتبهم في أنجليكاستراسي رقم 4، في مبنى رمادي اللون، مكون من طابقين وسقف قرميدي أحمر في نودستادت، عبر جسور دريسدن الشهيرة في المركز التاريخي للمدينة. هنا، في مكتب الزاوية في الطابق الثاني، سيعمل الرائد بوتين أربع سنوات ونصف سنة قادمة.

دريسدن واحدة من المدن الأوروبية الجميلة، ولا تزال تشوهها أنقاض كنيسة السيدة العذراء المدمرة، وظلت كنيسة الباروك دون ترميم أربعة عقود بعد إلقاء القنابل الحارقة على دريسدن في فبراير/شباط 1945م بوصفها رمزًا لأهوال الحرب، ولمزيد من الأغراض الدعائية المعاصرة عن الهمجية الغربية في أنجليكاستراسي.

عبر النهر، وعلى بعد مسافة قصيرة ثمة شارع جميل، تصطف على جانبيه الأشجار والحدائق التي تزدهر كل ربيع بنسيج من الألوان، خلافًا للأبنية الأثرية المنهارة في لينينجراد. في التقاطع الذي يلتقي بالطريق الرئيس، يقبع هناك في باوتزنرستراسي مجمع كبير يمتد إلى جرف يطل على مصب النهر المعشوشب الواسع. بعد الحرب، حولت الشرطة السرية السوفييتية، وNKVD، المبنى الصغير هناك على الجرف إلى محكمة عسكرية، حيث لا يحاكم بقايا النظام النازي فقط بل والمعارضون للدولة الشيوعية الجديدة⁴. جهاز أمن

الدولة (ستاسي)، بعد تأسيسه، تسلّم المجمع ووسّعه على نحو مطّرد. في عام 1953م، بنى سجنًا بأربع وأربعين زنزانة، اعتقل فيه خلال هذه السنين أكثر من اثني عشر ألف سجين ينتظرون التحقيق والسجن.

في الوقت الذي وصل فيه الرائد بوتين، كان مقر جهاز أمن الدولة قد أصبح مدينة سرية داخل المدينة، وفي الداخل كانت المكاتب الإدارية، من ضمنها دار ضيافة كبار الشخصيات، ومبان سكنية تكفي لاستيعاب ثلاثة آلاف شخص، وهناك أيضًا بناء منعزل، يضع فيه الضباط سماعات ضخمة على آذانهم ويستمعون ساعات عديدة لمحادثات سجلتها أجهزة تنصت مخبأة في جميع أنحاء المدينة. وكان لرئيس جهاز أمن الدولة في دريسدن، هورست بوم، مكتب في الطابق الثاني من المبنى الرئيس، يطل على ساحة معبّدة يلعب بها ضباط جهاز أمن الدولة كرة الطائرة وكرة القدم، ويؤدون هذه الألعاب أحيانًا مع ضباط الـ (كي جي بي) في الطرف الآخر من الطريق.

في ذلك الوقت كانت الحياة في الاتحاد السوفييتي راكدة، حتى إن النظام الاشتراكي المتصلب، كما في ألمانيا الشرقية مثلًا، بدا مزدهرًا مقارنة به، وكانت مليئة بالإغراءات الخطيرة، وبخاصة للضباط الشباب من الـ (كي جي بي) والجيش الأحمر: النساء، والمال، والخمر، وكانت جميعها مسارات خطيرة إلى الانحطاط الإيديولوجي⁵؛ فالضباط السوفييت والجنود المنتشرون في ألمانيا يحاولون الحصول على كل ما يمكن الحصول عليه؛ من الجينز الأزرق، والمواد الخلاعية، وحتى الأسلحة، كل شيء للبيع أو المقايضة في السوق السوداء مقابل الفودكا، التي حظرها قادة الجيش الأحمر. ومن بين فريق النخبة في الـ (كي جي بي)، تجد الضباط وزوجاتهم قد انهمكوا في شراء المواد الغذائية والملابس والإلكترونيات- الكماليات التي يعاني الاتحاد السوفييتي نقصًا حادًا فيها- يشحنونها إلى بلدهم وبييعونها في السوق السوداء النهمّة.

بوصوله إلى دريسدن في أغسطس/آب 1985م، يكون فلاديمير قد حقق الحلم الذي راوده في طفولته: أصبح ضابط استخبارات أجنبية، وأُرسل إلى الخارج لمحاربة أعداء الدولة. خبرته السينمائية حتى ذلك الوقت كانت أقل مما كان يتخيل ذات مرة. لم يكن حتى ضابطاً سرّياً؛ بل كان ضابط حالة، يلتحق بموظفين ساخرين مبذرين في مخفر مقاطعة من إمبراطورية الـ(كي جي بي). وسرعان ما لقبه زملاؤه (فولوديا الصغير)؛ فقد كان هناك اثنان آخران يحملان اسم فلاديمير في القصر في أنجليكاستراسي، وهما (فولوديا الكبير) و(فولوديا ذو الشوارب)⁶. فولوديا الكبير كان فلاديمير يسولتسيف، الذي وصل قبل عامين، وقد تدرّب وعمل في المكاتب الإقليمية للـ(كي جي بي) في روسيا البيضاء وكراسنويارسك، وهو اليوم منهك للغاية.

عندما توفي قسطنطين تشيرنينكو في وقت مبكر من هذا العام، وقبل أن يصل فولوديا الصغير، كان يسولتسيف وزملاؤه قد شربوا نخب المرض الذي اختطفه بسرعة وأغفى البلد من تحمل مدة طويلة أخرى من عدم اليقين. سخر يسولتسيف من البيروقراطية، ومطالب المركز الذي لا يشبع، ومن خوفه الزائد من تهديداتٍ، هي من وجهة نظره وهمية، قال مازحاً: إن «أخطر سلاح» لتجسس الـ(كي جي بي) في دريسدن هو المسمار الذي يفتح به الثقوب في رزم التقارير المكتوبة بإخلاص، والتي ترسل دون جدوى إلى موسكو، وكثير منها لا يزيد على ملخص الأحداث السياسية التي أعلنتها الصحف المحلية⁷. «جاء فولوديا بوتين إلى الـ(كي جي بي) برومانسية بطولية»، كما كتب، «ولكن في دريسدن لا يمكن أن يكون هناك أي رومانسية بأي حال من الأحوال، وقد فهم ذلك تماماً»⁸.

كان لا يزال فولوديا الصغير مناسباً لوظيفته، وتليق به، وقد تزلف على الفور متقرباً من رئيس محطة دريسدن، العقيد لازار ماتفييف، الذي يخدم هناك منذ عام 1982م، وهو رجل قصير القامة، أقصر من بوتين، نحيل في الوسط، وأصلع تقريباً باستثناء مصدتين ناعمتين من الشعر الأبيض، وهو من مواليد عام 1927م، وهو من المدرسة القديمة، ومن

ضباط المخابرات السوفييت المخلصين الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم في الحرب الوطنية العظمى. وقد جعل الرائد الشاب مقرباً منه وتحت جناحه، مبدئياً إعجابه بأخلاقيات العمل الهادف عنده ونزاهته أيضاً.

قبل عام من وصول بوتين إلى دريسدن، بدأت الـ (كي جي بي) تدفع راتباً يعادل 100 دولار- أي من العملة الصعبة- وهو مبلغ ضخم يوزع بالدولار والماركات، من وجهة نظر يسولتسيف، هناك فترة في ألمانيا الشرقية كانت بالنسبة إلى معظم ضباط الـ (كي جي بي) «فرصة فريدة لضمان أن تكون شيخوختهم هائلة»⁹، لكنها ليست لبوتين ولا لزوجته. ماتقييف كان معجباً لحد العشق بليودميلا؛ الأم الشابة الجميلة، التي لا تشبه الأمهات الأخريات؛ (الامرأة التجارية)، ولم يخف سراً بين بقية الفريق في الـ (كي جي بي) أن فولوديا الصغير هو المفضل لديه؛ لأن هذا الرائد الشاب المحترف لم يظهر أي علامة تظهر عزمه على التفوق على رؤسائه؛ كان «شخصاً واضحاً وضوح الشمس»، و«رجل عمل» حقيقياً، وإن لم يكن من نوع المرؤوسين الذين يبالغون في عملهم ويصلون الليل بالنهار¹⁰.

في البداية، كانت ليودميلا لا تزال في لينينجراد للانتهاء من دراستها، أما فولوديا الصغير فانتقل مع زميل له للإقامة مدة وجيزة في الطابق العلوي في شقة من المبنى المشيد حديثاً، في 101 راديبيرغرستراسي على مسافة قصيرة لا تتجاوز خمس دقائق سيراً على الأقدام من قصر الـ (كي جي بي). المبنى يحتوي على ثكنات عسكرية سوفيتية في جانب منه، وعلى حديقة غابات من الجهة الأخرى، في الطرف الشمالي الشرقي من مدينة دريسدن.

وكحال معظم المباني في الحي، يضم جهاز أمن الدولة والضباط السوفييت وأسرههم، وكان مجتمعاً صغيراً مكتفياً بذاته من الشرطة والجواسيس السريين. شمل الحي تبادلاً عسكرياً، ومتجرًا لبيع المنتجات الروسية، ومدارس للأطفال، وسينما لعرض الأفلام السوفيتية، وبانيا (النسخة الروسية من الساونا). انتقل الرائد بوتين في وقت لاحق إلى

شقة في الطابق الرابع عند أول مدخل من المداخل الاثني عشر المنفصلة للمبنى، التي جعل لكل منها درج خاص بها، على الرغم من عدم وجود المصاعد. كانت الشقة مكونة من أربع غرف تغطي مساحة سبع مئة قدم مربعة، ومع أنها لم تكن فاخرة، فقد كانت أول منزل مستقل له.

عندما وصلت ليودميلا في خريف عام 1985م، محتضنة ماشا، وجدت في الانتظار على طاولة المطبخ سلة من الموز قلما تجدها في بلادها، فشعرت في البداية أنها قد استفاقت من حلم. كان الحي ساحرًا، والشوارع نظيفة، وتُغسل النوافذ في الشقة مرة في الأسبوع، وكانت الزوجات الألمانيات ينشرن ملابسهن في صفوف على أعمدة معدنية زرعت في الحديقة العشبية في الخارج، ورتبت جميعها في صفوف جميلة¹¹. القاعدة الأمامية لعمل (كي جي بي) في دريسدن كانت تشرف على أربع مقاطعات جنوبية لألمانيا الشرقية؛ وهي دريسدن، ولايبزغ، وغيرا، وكارل ماركس ستاد. انخرط الرائد بوتين وزملاؤه في العمليات الاستخباراتية، وفي التجسس والتحليل، وهواجس أخرى للمركز؛ من تجسس تقني وعلمي، وكانت تركز جميعها على العدو خارج الحدود وليس بعيدًا عنهم. جلس في مكتب في الطابق الثاني يشاطره فيه يسولتسييف الذي كان يسمى مكانهما بالزنزانة، وفولوديا الصغير بصديق الزنزانة. كان في الغرفة طاولتان، وخزانة للأوراق السرية، وهاتفان بخط واحد، وكان فولوديا الصغير يخاف من الرد على الهاتف، إذ يرتبك من لغته الألمانية المهشمة، مع أنه أتقنها فيما بعد حتى أصبح يحاكي بها اللهجة الساكسونية¹²، إذ لطالما أحب الثقافة والتاريخ والأدب الألماني حين كان طالبًا، واليوم انغمس فيه. يقول هورست جيهمليتش، كبير مساعدي بوم، رئيس ستاسي في دريسدن: «كان الروس يسألون جيهمليتش شرح بعض المصطلحات في الألمانية، ويطمح دائمًا إلى تحسين قدراته اللغوية»¹³.

كان يسولتسييف مفتونًا بزميله الجديد، وبحس النكته لديه، وبجذوره المتواضعة، فجدّه كان يعمل في مطبخ نبلاء ثورة أكتوبر/تشرين الأول، وفوق ذلك لم يكن لفولوديا الصغير أي أقارب في مراتب (عالية) يمكنهم مساعدته على تعزيز مسيرته المهنية. كان بالنسبة إلى

قائده أشبه بالحيوانات المدللة لدى مقتنيها، ثم أصبح ممثل الحزب الشيوعي للمكتب؛ يلقي المحاضرات، ويدير المناقشات الأسبوعية حول الأحداث السياسية، ولكن ذلك كله كان - كما يعتقد يسولتسيف - اختلاقاً، أو حتى عملاً ساخرًا. كان يستمتع ببرامج المنوعات ذي الثقافة المتوسطة في التلفزيون الألماني، وأحب أيضًا قراءة الأدب الروسي الكلاسيكي الساخر؛ لأمثال نيكولاي جوجول، وميخائيل سانتيكوف - شيدرير الذي هاجم البيروقراطية القيصرية الفاسدة للقرن التاسع عشر في روايته النفوس الميتة، تحفة جوجول هذه التي تنتقد الفساد والاستجداء في المقاطعات أصبحت الرواية المفضلة لديه. وكان يمزح دون كلال، متناولاً الصفات الكريهة لعملاء الجاسوسية، الذين كان منهم، بعض الوقت على الأقل، وسخر أيضًا من معاداة ماتصيف لـ (السامية)، التي كانت منتشرة في الـ (كي جي بي)، على الرغم من أنه لم يفعل ذلك أمامه مباشرة.

يعتقد يسولتسيف أن فولوديا كانت لديه قدرة متميزة على تكييف شخصيته مع الوضع ومع رؤسائه، وقدرة ساحرة على كسب ثقتهم، وهي السمة المميزة له التي لاحظها الآخرون. في ساعات النقاش الطويلة - وكانت تدور غالبًا في بانيا قبو القصر - كان فولوديا يظهر لمحات من الفردانية والتفكير الحر الذي قد يتسبب له بمشكلات.

في 9 نوفمبر/تشرين الثاني 1985م، كانوا يشاهدون البث السوفييتي للجولة النهائية المثيرة لبطولة العالم في الشطرنج بين أناتولي كاربوف وغاري كاسباروف، التي كان يُنظر إليها على أنها صراع أيديولوجي بين الحرس القديم والجديد. حينها كان فريق الـ (كي جي بي) كله مؤيدًا لكاربوف، حائز لقب البطل الذي أشاد به الاتحاد السوفييتي، وكانوا ينظرون إلى كاسباروف، البطل الذي نددت به الصحف الرسمية كما كشفت المباراة، على أنه «مغرور ووقح للغاية»، لكن فولوديا الصغير، من ناحية أخرى، أظهر (تعاطفًا خطيرًا) مع كاسباروف، وقال إنه استمتع بانتصاره النهائي، من غير أن يخشى قول ذلك.

ما أثار يسولتسيف كثيرًا كان إيمان زميله المعلن بالله؛ مع أنه في الد(كي جي بي) كان «أمرًا لا يمكن تصوره»، وكان يسولتسيف شيعيًا ملحدًا، وكان هو نفسه غير متقبل لفكرة الاعتراف بأي دين، على الرغم من أن الشاب كان حريصًا على عدم التباهي به، وكان متحفظًا جدًا، ولم يكن يسولتسيف يومًا متأكدًا من أن استعانته بالله كانت إيمانًا أم مجرد تكتيك استخباراتي آخر¹⁴.

استقر الرائد بوتين في الحياة في ألمانيا بأريحية أكبر، ولأول مرة في شبابه يتوقف عن ممارسة الجودو، ويتخلى عن ممارسة الرياضة بانتظام، ومع أنه لا يشرب كثيرًا، فإنه استطاب طعم البيرة، وخاصة الراديبيرغر بيلسنر التي تصنع في بلدة صغيرة بالقرب من مدينة دريسدن. صادق النادل الذي كان يملأ له حصته بانتظام؛ وهي برميل صغير، وسرعان ما أضاف خمسة وعشرين رطلًا لجسده النحيل. أما ليودميلا فما إن وصلت حتى أصبحت حاملاً على الفور مرة أخرى، وولدت ابنته الثانية، كاترينا، أو كاتيا، في 31 أغسطس/آب 1986م، وقد لمس صديقه يسولتسيف أنه «شعر بالإحباط قليلاً» لأنهما لم يرزقا بذكر.

أثبت بوتين الزوج والأب أن لديه شيئًا من الشوفينية، إذ رفض مساعدة الزوجة في التسوق والطبخ، أو أي شيء آخر من أعمال التدبير المنزلي، وكان يعتقد بالتقسيم التقليدي للأدوار الزوجية، حتى إنه خلال علاج زوجته في المستشفيات مدة وجيزة، عندما كانت حاملاً في دريسدن، بقي وحده ثلاثة أيام، فضاقت ذرعًا من الجهد الذي بذله في العمل المنزلي، وكان- حسب وصف ليودميلا- «المقدم والمدافع»، ومن ثم كان عليها أن تتعامل مع ما لم يفعله. وكان- كذلك- الآكل الذي يصعب إرضاؤه، يرفض أن يلمس الأطباق التي لا يحبها، فلم تعد تطيق أن تطبخ له، وعندما اشتكت، استعان بالقول الروسي المأثور: «لا تمتدح امرأة فإنك بذلك تقسدها»، كما أنه لم يحتفل مرة واحدة بمناسبة زفافهما¹⁵.

كانت متطلبات عمل الرائد بوتين في المكتب مرهقة، حتى إنها كانت تفسد عطلة نهاية الأسبوع للزوجين، ولكن كانت تحت تصرفهما سيارة تشيجولي سوفيفيتية الصنع، فقضوا عدة سفرات بها مع جيرانهم الروس، الذين كانوا جميعاً من رجال الأمن وأزواجهم.

انضم إلى نادي الصيد، وزار مع ليودميلا الغابات والحدائق العامة في ولاية سكسونيا، وزار مرتين على الأقل تشيكوسلوفاكيا ودولاً أخرى تدور في فلك الاتحاد السوفيفيتي، وسافرا مرة مع العقيد ماتيفيف وزوجته يفجنيا، واشتريا إستيريو من الغرب في وقت لاحق، واشتريا في وقت مبكر لعبة فيديو الأتاري.

لم يسافر الزوجان إلى ألمانيا الغربية، ومع أنهما كانا يستضيفان بانتظام الأصدقاء الروس والألمان في شقتهم، فإن حياتهما الاجتماعية كانت تقتصر على دائرة ضيقة من وكلاء الاستخبارات الألمانية والسوفيفيتية، وكانت أقرب صلتهم مع الزوجين بورخاردس، اللذين لديهما طفل معاق، وحين انفصل الزوجان في وقت لاحق - يقول هورست جيهمليتش - ساعد الرائد بوتين زوجته على العثور على عمل في برلين.

عاش الزوجان (البوتينيان) حياة مريحة وموسرة مقارنة بالأشخاص الذين عرفوهم في الاتحاد السوفيفيتي، لكنها كانت حياة مقيدة، فقد كانت الزوجة ممنوعة من عقد صداقات خارج دائرتها المباشرة، ومن ثم فقد كانت حياتها في مجتمع انعزالي يوتر الأعصاب ويفذي القلاق والخلافات التافهة، وهذا ما جعل سنواتهم في دريسدن «موزونة ومستقرة وعادية ورتيبة»¹⁶، وأصبحت الحياة هادئة، ولكنها بالنسبة إلى ليودميلا خانقة؛ فزوجها لا يتحدث عن عمله في المنزل، مع أنها كانت على اطلاع على كل شيء. وكان كثيراً ما يحذّر ليودميلا لتتجنب معارفها (غير المرغوب فيهم)، حتى من الإخوة الألمان؛ فلا يمكن أن تثق بأحد منهم؛ فهوياتهم ونياتهم الحقيقية قد لا تصبح واضحة لسنوات، وهذا كان صحيحاً؛ وتأكد للبتينيين لاحقاً؛ حينما رُعم أن وكالة الاستخبارات الخارجية الألمانية الغربية؛ ال BND، تسللوا إلى القصر في أنجليكاستراسي من خلال عميلة مفعمة بالحيوية وجذابة عملت

مترجمةً، واستلهمت شخصيتها من الرمز الذي أطلق عليها (بالكوني) (الشرفة)، وقيل إنها صادقت البوتينيين، وليودميلا على وجه الخصوص، ووُثقت ليودميلا بها فأخبرتها أن زواجهما كان عاصفاً، وأن فلاديمير كان يسيء معاملتها، وهو زير نساء على الدوام¹⁷. بقي أمر هذه المترجمة خفياً، وإثبات كونها جاسوسة أو لا مستحيل؛ فربما كانت مجرد جزء من حرب التضليل بين وكالات الاستخبارات المتنافسة، ففي حرفة التجسس تبقى الحقيقة ليست هي القضية قطعاً.

كان الهدف من الـ(كي جي بي) في ألمانيا الشرقية جمع المعلومات الاستخبارية، وتجنيد العملاء الذين لديهم إمكانية الوصول إلى الغرب، وكان جزء كبير من عمل بوتين في هذه المهمة رتيباً ومملاً. أعار الألمان الشرقيون مكتب الـ(كي جي بي) ضابطين، فكانوا يفتشون معاً استمارات أولئك الذين يرغبون في السفر إلى ألمانيا الغربية، وكان الهدفُ تحديدَ الذين لهم أقارب بالقرب من القواعد العسكرية الأمريكية وحلف شمال الأطلسي في باد تولز، ووايلدفلكن، وسيلي، ومحاولة جس نبضهم بإمكانية تعاونهم مع الـ(كي جي بي) مقابل الحصول على التأشيرة، بالإبلاغ عن أي شيء غير عادي يرونه؟

بعد عام 1986م ركّز قادة الـ(كي جي بي) جلَّ اهتمامهم على الخطر الذي يمثله حلف شمال الأطلسي، مع أن التغييرات التي أحدثتها الشخصية الكاريزمية للزعيم السوفييتي الجديد، ميخائيل جورباتشوف، كانت توحى بخفض توترات الحرب الباردة. كان هاجسهم على نحو خاص مكان تموضع القبعات الخضراء في ألمانيا، التي رأى يسولتسيف أنها مثيرة للسخرية. كانت القوائم المملة للمجندين المحتملين (المهمة الأولى) لمكتب دريسدن، ولكن في نهاية المطاف تخلوا عنها لأنها مضيعة للوقت¹⁸.

كان الرائد بوتين يظهر بالزي الرسمي في بعض الأيام، ويرتدي ملابس مدنية في الأيام الأخرى، وهذا يتوقف على المهام الموكلة إليه. وكان يدير المخبرين الذين جنّدهم، أو جندهم غيره، أملاً في جمع المعلومات عن التطورات الاقتصادية والسياسية، أو العسكرية،

في الغرب، وكذلك في ألمانيا الشرقية، وكان العملاء هم الجواسيس الحقيقيين، يخفون هوياتهم ونشاطاتهم، ويعيشون في خوف من الخيانة. وكان هو المسؤول الإداري؛ يتعقب رجال الأعمال، أو غيرهم من الأجانب الذين يمرون بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية والوحيدة في المدينة، سانت سيمون، المتربعة في الجبال الرائعة، أو يبدون اهتمامًا خاصًا بها، ويعمل على تجميع ملف عن رجل الدين بها، القمص جريجوري دافيدوف، والمجموعة الصغيرة من المؤمنين¹⁹.

أشار هورست جيهمليتش، مساعد رئيس جهاز أمن الدولة في دريسدن، هورست بوهم، إلى أن بوتين ركز جهوده على تجنيد الطلاب «الذين قد يصبحون ذوي أهمية في وطنهم يوماً ما»، وهم من سينهضون بالصناعة أو بالحكومة، وتلك هي الطريقة التي جندت بها ال (كي جي بي) فيلبي وغيرهم في كامبريدج، وانتهت بضرر هائل، ولكن نجاح بوتين، الذي عرفه الجميع، كان باهتًا بالمقارنة. كان الناس يساعدون الاتحاد السوفييتي لقناعتهم الأيديولوجية، ولكن معظمهم اليوم خانوا شعوبهم من أجل المال، كما فعل الدريتش إيمز وروبرت هانسن في الولايات المتحدة. فماذا كان بوسع الاتحاد السوفييتي في تلك المرحلة أن يقدم لهم؟

تولى الرائد بوتين إعداد الأوراق عن كل مجند محتمل، وتقديمها إلى مكتب بوهم للموافقة عليه؛ وقد أوضح جيهمليتش طريقة العمل بقوله: «كان علينا ضمان أن الناس الذين سُجلوا من قبل أصدقائنا لن نتصل نحن بهم أيضًا من قبلنا» وأردف: حتى ذلك الحين لم تعرف ستاسي (جهاز أمن الدولة) كل ما تقوم به ال (كي جي بي).

كذلك حلت قاعدة دريسدن التطورات السياسية، وشخصيات قادة الأحزاب في ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية، وبحثت عن أدلة على معارضة السياسات السوفييتية في ظل جورباتشوف التي تتعرض لتغيير عميق. وكانت جهود ال (كي جي بي) من خلال عملية

LUCH، التي ترمي إلى مراقبة الألمان الشرقيين، تغذي المركز باستمرار بالتقارير عن (الأصدقاء الأعزاء)، حتى في جهاز أمن الدولة.

بعد عام 1987م رُقي بوتين إلى عقيد، وأصبح أحد مساعدي ماتيفيف، ثم أصبح كبير مساعديه، ثم أصبح نائب رئيس قاعدة دريسدن. كثرت واجباته الإدارية مع الترقيات التي نالها، ولكنها أيضًا أبعده أكثر عن العمل النشط للعملاء والجواسيس الحقيقيين. وكان- كما في لينينجراد- المنفذ، أي ما يعادل ضابط الشؤون الداخلية، وكان دائم الحذر من أعداء الداخل كحذره من أعداء الخارج، حتى إن سيجفريد داناث، وهو أحد الجيران في أنجليكاستراسي، وكان يسير مع كلبه، توقف أمام مكتب (كي جي بي) وانخرط في نقاش صغير مع أحد زملاء بوتين، وعندما صورت زوجة داناث الرجلين معًا، وخلفهما القصر، صرخ الحارس الروسي منبهاً، ووبخ الألماني والروسي على حد سواء، وهو يهتف أن التصوير ممنوع منعاً باتاً، فمع أن داناث نسي بسرعة هذا اللقاء، فإن المقدّم بوتين أرسل رسالة إلى جهاز أمن الدولة، طالباً أن يوضع داناث تحت المراقبة المشددة في إجراء احترازي²⁰.

بصفته الرسمية، كان بوتين يلتقي مصادفة بالقيادة الألمانية الشرقية في دريسدن، ومنهم هورست بوهم، وهانز مودرو سكرتير الحزب الشيوعي في المدينة، لكن كانت رتبته أقل من أن تكون معرفته بهم طبيعية وبلا رسميات، فقد اقتصرته مهامه على الأمور المطلوبة الدنيوية؛ مثل إمكانية أن يقيم ثلاثة من المسؤولين في الـ (كي جي بي) في فندق دون أي تكلفة (كانت موسكو تعاني عجزاً واضحاً في السيولة المالية)، أو توفير تذاكر مجانية للجنود السوفييت لمشاهدة مباراة كرة القدم بين فريق دريسدن وسبارتاك موسكو. وكانت المراسلة الوحيدة له مع بوهم رسالة يطلب فيها المساعدة في عودة الخدمة الهاتفية لمخبر داخل شركة لتجارة الجملة في ألمانيا الشرقية، وهكذا فقد بدا أن بوتين محكوم عليه أن يظل شخصية مغمورة في خلفية المشهد²¹.

في عام 1987م وقع رئيس جهاز أمن الدولة، إريك ميلكي، مرسومًا يمنح فيه المقدم بوتين الميدالية الذهبية؛ بمناسبة الذكرى السبعين للثورة الروسية، وفي تلك الليلة، 7 نوفمبر/تشرين الثاني، التحق هو واثنا عشر ضابطًا في المخابرات بزملاء آخرين من ستاسي في مقر القيادة العامة في باوتزنيستراسي- وهو المبنى نفسه الذي يضم السجن- للاستماع إلى خطاب هورست بوهم. هورست هذا كان عنيفًا سيئ السمعة، وكانت لهجته متمعدة، حزينة، ومرعبة في اليقين الأيديولوجي. ولما كان الزعيم السوفييتي حينها يسعى لبناء علاقة أقل عدائية مع الغرب، فإن هورست حذر تلك الليلة من أن وكالات الاستخبارات المعادية للاشتراكية لن يخضعوا على الإطلاق، «وكتفت المخابرات الإمبريالية نشاطاتها للحصول على أي معلومات من شأنها أن تساعد على اتخاذ مزيد من الإجراءات» ضد ألمانيا الشرقية والدول الاشتراكية الأخرى، قال هذا وهو يردد. وفي وقت لاحق، بعد شهر، وقع جورباتشوف ورونالد ريغان معاهدة السلاح النووي المتوسط المدى في واشنطن؛ للقضاء على بعض أخطر الأسلحة في أوروبا.

الحرب الباردة لم تنته بعد، إلا أن ذوبان الجليد كان في المنظور؛ ليس لقادة ألمانيا الشرقية فقط، الذين أصبحوا نقادًا شرسين لبيريسترويكا جورباتشوف والجلاسنوست، وملأت استنكاراتهم تقارير الـ (كي جي بي) المبرقة إلى المركز، فتأكد إيمان قادتها بمستقبل ألمانيا الشرقية لم يتزعزع إلا بعد فوات الأوان. جورباتشوف عرف أن الاتحاد السوفييتي قد تخلف عن الغرب ويتهاوى؛ اقتصاديًا وعلميًا وعسكريًا.

أظهرت إصلاحات جورباتشوف الأولى للنظام الاقتصادي السوفييتي، التي صادقت عليها القيادة (الإصلاحية) الجديدة لـ (كي جي بي)، أظهرت الشروخ الخطيرة في جسم الدولة- حتى داخل الـ (كي جي بي) نفسها- التي لا يمكن تداركها. وفي حين ظلت دعواته لتحديث الإنتاج الصناعي والزراعي ذات أثر قليل في سلطة الـ (كي جي بي) أو في مكتسباته، فإن سياسة البيروسترويكا التي أعلنها في مؤتمر الحزب الـ 27 لعام 1986م، وعدت بحق

المبادرة والإبداع في الحكومة، والتسامح في النقد، وكانت هذه هي بداية النهاية للعقيدة الجامدة من سنوات بريجنيف.

شاهد الفريق في أنجليكاستراسي هذه التطورات من بعيد، وكان رده حذرًا؛ فالعقيد ماتقييف لم يرق له ما شاهده من حراك في موسكو تحت حكم جورباتشوف، ولكن الآخرين- ربما لخبرتهم من التجارب السابقة- سوف يقولون لاحقًا إنهم كانوا يعرفون أن النظام السوفييتي بدأ يتحطم تحت الضغط الصادر عن البيروسترويك والجلاسنوست. «كنا جيل الشباب في الخدمة الأمنية»، أشار يسولتسوف متذكرًا، «وكان من الواضح لنا أن السلطة السوفييتية تسير حتمًا إلى الهاوية»²²، وقد قاسمهم المقدم بوتين أيضًا وجهة النظر القاتمة عن حال الاتحاد السوفييتي، وكان يعتقد أن الحرب في أفغانستان أصبحت «لا معنى لها، بل وحرابًا إجرامية»²³.

لقد شاهد بنفسه الثروة النسبية للغرب (المنحط)، وكان يتابع قوائم (كتالوجات) المتاجر الألمانية التي كانت مطمئنًا في مكتب الـ(كي جي بي)، إذ كانت ترسل مقايضة إلى بلادهم لتكون بمنزلة نماذج لأزياء الخياطات هناك²⁴. وكانت الصحف مثل دير شبيغل، أو المجلات مثل شتيرن، تجوب لجمع الأخبار، لملء التقارير الاستخباراتية إلى المركز، وكان هو وزملاؤه يرون بأنفسهم التقارير الفاضحة عن الكوارث، مثل الحادث الذي وقع في محطة تشيرنوبيل للطاقة النووية في أوكرانيا في عام 1986م، ويعرفون أن الرواية الرسمية بالغت في الكذب. وبطريقة ما، فقد طبقت الجلانسوست على قوات الأمن أولاً، التي كان بإمكان أفرادها الوصول إلى أماكن ممنوعة يصعب على الآخرين الوصول إليها، ولكنها سرعان ما تؤثر في الرأي العام.

إن القاعدة الصغيرة في دريسدن تعكس الانقسامات الحاصلة داخل الـ(كي جي بي) على خلفية التغييرات البنائية الجارية في الوطن، والفجوة بين المتشددين والإصلاحيين، وبين الحرس القديم والجيل الجديد، ففي نهاية عام 1986م أُفرج عن أندريه ساخاروف

من منفاه في جوركي، وهو ما دفع العقيد ماتفييف ليلقي خطبة عصماء، لم تلق تعاطفًا من مرؤوسه المفضل، فقد كان المقدم بوتين يعبر عن إعجابه بالمنشقين بين الحين والآخر، مثل ساخاروف أو سولجينتسين، وفي مساء اليوم الذي أفرج فيه عن ساخاروف من المنفى، فاجأ يسولتسيف مرة أخرى قائلاً له: «لا تنس»، وأضاف: «أن التفوق العسكري الواضح للغرب هو وحده الذي يمكنه أن يعيد السادة الأحرار في الكرملين إلى رشدهم»²⁵. وثمة حالة أخرى مشابهة؛ ففي وقت مبكر من 1987م ذكر لطبيب الجيش الأحمر الذي عرفه في دريسدن أنه يؤيد فكرة إجراء انتخابات للرئيس الجديد للاتحاد السوفييتي²⁶ قبل ثلاث سنوات مما حدث.

كانت ازدواجيته واضحة حقًا، فقد استشعر الحاجة إلى التغيير السياسي والاقتصادي، ولكن- مثل جورباتشوف وكثيرين غيره من الروس- كان يفضل التغيير التطوري، لا الإصلاح الجذري، ومثل عديدين غيره، لم يكن يريد للدولة أن تنهار.

رئيس المديرية الأولى الرئيسة في موسكو، فلاديمير كريوتشكوف، تكيف بسرعة مع تفكير جورباتشوف الجديد، ظاهريًا على الأقل. كان كريوتشكوف مثل بوتين في نواح كثيرة؛ متعصبًا، وبلياقة بدنية، ومخلصًا في عمله، ممتنعًا عن المسكرات الذي «يسبب فزعًا لمدمني الخمرة التقليديين» إذ كان يحظر الشرب في حفلات الوداع لضباط يتأهبون للسفر خارج البلاد²⁷. وأصبح أحد أقرب مستشاري جورباتشوف، الذين تبناوا الانفتاح الجديد في شؤون الاستخبارات، وفي عام 1988م أصبح رئيسًا لـ(كي جي بي). وفي ذلك الوقت، بدأت الـ(كي جي بي) تشعر حقيقة أن الكتلة التي أنشئت في أوروبا الشرقية أصبح مصيرها محتومًا.

من موقع دريسدن شاهد بوتين وزملاؤه أيضًا أن حكومة إريك هونيك، الماركسي القديم العنيد، بدأت تفقد الدعم الشعبي. هونيك ورئيس جهاز أمن الدولة، ميليكي، رفضا بقوة تكرار بيريسترويكا جورباتشوف ودعايتها، ولكن الألمان الشرقيين العاديين لمسوا التغيير في الهواء؛ فالرغبة الكامنة في الحريات الأساسية بدأت تصحو، كما صحت في أماكن أخرى

من أوروبا الشرقية، وكان انسحاب البلاد أمرًا محتومًا، كما يعتقد بوتين، لكنه لا يدري هل بات وشيكًا²⁸.

في أغسطس/آب 1989م فتحت المجر حدودها مع النمسا، وسُمح للمواطنين بالعبور بحرية، فتوجه الألمان الشرقيون، الذين يستطيعون التنقل داخل الكتلة السوفييتية، إلى هناك أملًا في الهجرة. وظهرت الاحتجاجات داخل المدن وفي مختلف أنحاء ألمانيا الشرقية، ونشط بها الناس يطالبون، على الأقل، بما أقر به الزعيم السوفييتي لمواطنيه: الانتخابات، والحرية في انتقاد حكم الحزب الواحد، وإصلاحات السوق التي يمكن أن تأتي بمزيد من الرخاء المادي، ومع أن الخوف من جهاز أمن الدولة بقي حاضرًا، لكن في عام شهد حماسة عارمة للثورة- من ليتوانيا إلى ساحة تيانانمين- لم يعد كافيًا لإبقاء الناس صامتين وخائفين في بيوتهم.

في لايبزغ يوم 4 من سبتمبر/أيلول، سُكّلت حركة معارضة داخل كنيسة القديس نيكولاس، وخرجت في احتجاج صغير ما بعد خدمات تلك الليلة من يوم الاثنين، ثم تنامت احتجاجات يوم الاثنين مع مرور كل أسبوع، وامتدت إلى مدن أخرى، من بينها دريسدن. وبحلول أكتوبر/ تشرين الأول انضم عشرات الآلاف إلى حركة المعارضة، في حين اندفع الآلاف نحو الغرب. وفي 2 أكتوبر/ تشرين الأول أصدر هونيكر الأوامر بإخماد الاحتجاجات بالقوة، ولكن وحدة المظليين التي أُرسِلت إلى لايبزغ لم تنفذ الأوامر، وفي اليوم التالي حاولت حكومة هونيكر الحد من تدفق المهاجرين بحظر السفر إلى تشيكوسلوفاكيا. وحين وصل جورباتشوف إلى برلين الشرقية في 6 أكتوبر/ تشرين الأول، للاحتفال ظاهريًا بالذكرى الأربعين لتأسيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية، كانت النهاية اقترنت منه حقًا. ضغط هونيكر لمعالجة مطالب المحتجين، قائلًا: «الحياة تعاقب الذين يتأخرون»، ولكن بقي هذا الأخير متحديًا، ثم أعلن في خطابه الذي كان فيه جورباتشوف إلى جانبه: «سوف نحل مشكلاتنا بأنفسنا بالوسائل الاشتراكية، والمقترحات التي ترمي إلى إضعاف الاشتراكية لن تزهر هنا»²⁹.

وبعد أقل من أسبوعين أُطيح به، وحل محله نائبه، إيغون كرينز، على أمل إيقاف الاضطرابات السياسية، لكن كان الأوان قد فات؛ إذ لم يعد بالإمكان إيقاف زخم الاحتجاجات، وسرّعت الإجراءات العشوائية المتزايدة من قبل الحكومة في انهيارها. وفي 9 نوفمبر/ تشرين الثاني أعلن متحدث باسم الحكومة أن المكتب السياسي قد أذن للألمان الشرقيين بالسفر بحرية إلى الغرب، وقال- ردًا على سؤال- إنه عرف أن التغيير سيكون له آثار فورية.

وصل عشرات الآلاف من الناس إلى جدار برلين، مجتاحين حرس الحدود، ومع عدم وجود تعليمات واضحة من أعلى، سمح لهم الحراس بالمرور، وقد استقبلوا على الجانب الآخر من ألمانيا الغربية بابتهاج، وجنبًا إلى جنب بدؤوا بتدمير الجدار سيئ السمعة ورمز الحرب الباردة.

في دريسدن طالبت الاضطرابات مكتب الـ(كي جي بي)، وكان المقدم بوتين مرتبكًا بشدة، أو- كما سيدي لاحقا- كان مضطربًا؛ فقد كان- كما يذكر- يتعاطف مع مطالب المحتجين الواسعة، ولكن قلبه كان أيضًا مع أصدقائه في ستاسي، وهو يعتقد أن ستاسي «أيضًا جزء من المجتمع، ومصاب بالمرض نفسه»، ولن تكون هناك قوة غريبة ستطيح بالقيادة السياسية البالية. ما كان يزدريه ويخشاه هو حكم الغوغاء، وهذا ما كان يشاهده يتكشف من حوله، والأسوأ من ذلك أنه لا أحد في موسكو أبدى أي اهتمام، وساءه أن الـ(كي جي بي) استهلكت بالصراعات الداخلية الجارية في البلاد، وتجاهلت التحذيرات والتوصيات التي أرسلها هو وزملاؤه.

لم يكن الاتحاد السوفييتي وحده تحت الضغط، إذ أصبحت مهنته اليوم خارجة عن الحسابات، وبنهاية مسدودة، تذكر ذلك في وقت لاحق وقال: «العمل الذي أنجزناه لم يعد ضروريًا؛ ما الفائدة من الكتابة، والتجنيد، والحصول على معلومات؟ لا أحد في مركز موسكو كان يقرأ تقاريرنا»³⁰.

سقوط جدار برلين في نوفمبر/ تشرين الثاني لم يضع حدًا للاحتجاجات، وكذلك لم تسقط الحكومة على الفور؛ فقد ظلت شبكة الأمن (ستاسي) في المكان ذاته، مع أن سلطتها بدأت تتلاشى. بعد النشوة في برلين، جمعت الجماعات المعارضة نفسها وضغطت لتحقيق مطالبها في إجراء انتخابات حرة، فحوّلت المطالب إلى جهاز أمن الدولة نفسه. وفي دريسدن نظمت الجماعة المعارضة احتجاجًا خارج مقر جهاز أمن الدولة في 5 من ديسمبر/ كانون الأول، كانوا بضع مئات في البداية، ولكن سرعان ما انضم إليهم الآلاف، وكان يمكن من شرفة جانب القصر في أنجليكاستراسي، أن يشاهد فريق الـ(كي جي بي) بسهولة الحشد الزاحف على مجمع ستاسي، وقد غامر المقدّم بوتين بالخروج إلى طرفها للمراقبة من كتب.

وفي الساعة الخامسة، بعد أن غص المكان بالحشود، وبدا الخوف وحده غير قادر على تهدئة الوضع، خضع بوهم وأمر بفتح البوابة، فافتحم المتظاهرون المجمع، ودخلوا المباني التي كانت لا تزرع سوى الرهبة حتى ذلك المساء، وكان بوهم حينها في حالة ذهول وشاحب اللون، وقد توسل إليهم أن يهدؤوا إلا أنهم اقتحموا مقره.

كان الانقلاب سلمياً إلى حد كبير، ولكن في نظر بوتين كان الحشد مختلاً، يستهلكه الجنون، ويتذكر امرأة كانت تصرخ: «ابحثوا عن الممر تحت الألب! فهناك السجناء يتعرضون للتعذيب بالماء الذي يصل إلى ركبهم»، كان يعرف أن ذلك هراء! لأنه فقط من يعرف جيداً أين كانت زنازين السجناء.

كان الليل قد أرخى سدوله حين عاد متقهقراً إلى القصر، وكان اللواء الجديد فلاديمير شيروكوف، من كبار ضباط المخبرات، قد حل محل ماتقييف في وقت سابق من العام، أما ماتقييف فغادر القصر في تلك الليلة عند الساعة التاسعة إلى مكان ما في المدينة. وبينما كانت الحشود منهمكة بالتمتيش في مباني ستاسي، انفصلت عنهم مجموعة صغيرة، انتقلت إلى أنجليكاستراسي، وتجمعوا خارج محطة الـ(كي جي بي)، والغرض من ذلك لا يخفى على المحتجين. سارع حارس الأمن المتمركز في منزل حرسيّ صغير إلى الداخل لإبلاغ

المقدّم بوتين، الذي كان كبير الضباط في هذا المشهد، مع أربعة آخرين فقط في الداخل، وكان غاضبًا وقلقًا؛ فهو المسؤول عن ممتلكات الـ(كي جي بي)؛ ملفاتها، وأسرارها، فأمر الحراس بالتحضير لشن هجوم³¹، ثم اتصل هاتفيًا بالأمر العسكري السوفييتي في دريسدن، وطلب إليه أن يرسل تعزيزات لحماية المبنى، فأخبره ضابط في الخدمة أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا؛ لأنه «لا توجد أوامر من موسكو»، ولكنه مع ذلك وعد بالاستفسار. وعندما لم يرد الضابط بجواب اتصل به بوتين مرة أخرى، كلمه محاولاً الضغط عليه: «حسنًا، هكذا؟»، فأجاب الضابط: «سألت موسكو، لكن موسكو صامتة»، فسأله: «وماذا علينا أن نفعل؟»، «في الوقت الراهن لا يوجد شيء يمكنني فعله للمساعدة»³²، فذهل؛ إذ لطالما كان الضابط المخلص للدولة، على الرغم من كل الشكوك التي تصدر حول مصير النظام الشيوعي، ولكن ها هي ذي الدولة تخذله اليوم في لحظة الأزمة. ويتذكر تلك اللحظات: «كان لدي شعور بأن الدولة لم تعد موجودة»، فالمرارة لا يزال طعمها فطًا لسنوات لاحقة، «لقد اختفت، وأصبح واضحًا أن الاتحاد (السوفييتي) مريض بمرض قاتل، مرض عضال يسمى الشلل؛ شلل السلطة»³³.

كانت حيرته في اختيار ما يجب فعله عذابًا أليمًا، فقد بدا واضحًا - حتى من دون صدور أي تصريح واضح بهذا - أن القيادة السوفييتية لم تعد لديها النية لدعم حكومة ألمانيا الشرقية، كما فعلت في عام 1953م، وكما فعلت بالقوة في المجر عام 1956م، ومرة أخرى في تشيكوسلوفاكيا في عام 1968م. وبوتين لا يمكنه استخدام القوة ضد الفوغاء في الخارج، والواقع أنه لم يكن لديه القوة النارية لأن يفعل كثيرًا على أي حال. كان يفكر بالملفات في الداخل - التقارير الاستخبارية للمركز - وعواقب لا يمكن تصورها تقريبًا إذا وقعت في أيدي الرعاع؛ فالوثائق لا تفضح فقط عمل الـ(كي جي بي)، وإنما تؤثر أيضًا في «مصائر ناس من لحم ودم»؛ أولئك الذين تعاونوا معه ومع زملائه على مر السنين، الناس «الذين وتقوا ذات مرة بالأجهزة الأمنية» للاتحاد السوفييتي. وكان على يقين أنه سيواجه محكمة عسكرية لو انكشفت الملفات، وعلى الرغم من ذلك لا يملك أوامر وتفاصيل لما يمكن فعله لحمايتها،

وفكر أيضًا في سيرته المهنية في الـ (كي جي بي)، وعائلته التي اعتمدت على ذلك، واستشعر من ثم أن الاتحاد السوفييتي سينهار ومعه الحياة الوحيدة التي عرفها: خدمته بصفته ضابط استخبارات³⁴.

عندما اقتربت عقارب الساعة من منتصف الليل، أقدم المقدم بوتين على تنفيذ أكثر أفعاله خطورة، والأكثر حسماً في عمله المهني في (كي جي بي)؛ إذ ارتدى بزته العسكرية، وترك مسدسه من طراز كي جي بي في المكتب ولم يحمله، وخرج وحيداً إلى بوابة القصر، من دون قبعته ومن دون أوامر، فقط اعتمد على التحايل.

لم يكن المزاج العام في أنجليكاستراسي عدوانياً بقدر ما كان بهيجاً؛ وحدث أن احتشدت مجموعة من عشرين رجلاً في الشارع خارج البوابة يتحدثون بحماس بينهم، وعن دهشتهم من انهيار جهاز أمن الدولة اللعين دون قتال، وكان يقف بينهم سيجفريد داناث، الذي وقف منذ سنتين مع كلبه خارج قصر الـ (كي جي بي). تحدى أحد أفراد تلك المجموعة الحارس المناوب، وطلب السماح له بالدخول، فلم يقل الحارس شيئاً، وبعد أن توارى في المنزل لم يكونوا متأكدين بالضبط ما الذي يجب عمله، ثم شاهد داناث ضابطاً قصيراً يخرج من الباب الأمامي، وقد نزل خطوات قليلة واقترب منه، لم يتكلم أي كلمة في البداية، ثم تحدث بعد ذلك ببطء وهدوء.

قال بلغة ألمانية فصيحة: «يخضع هذا البيت للحراسة المشددة»، ففوجئ داناث، «جنودي مسلحون، وقد أعطيتهم الأوامر أن يطلقوا النار على أي شخص يدخل المجمع»، قال دون صراخ أو تهديد، وبعد أن تحدث بهذه الكلمات القليلة بكل بساطة، توقف، والتفت ورجع عائداً إلى المنزل، واكتفى الرجال في الشارع بالرد عليه غمغمة. تغير مزاج داناث، وفكر المحتجون في محاولة أفضل من اقتحام البوابات؛ فلا أحد يريد العنف، ومع أنهم كانوا قد أطاحوا بستاسي حقاً، فإن التعامل مع الـ (كي جي بي) شيء آخر تماماً، وهكذا تفرقوا من حول أنجليكاستراسي للانضمام إلى حشد زاحف حول مجمع ستاسي³⁵، وبعد ساعات قليلة

تلقت القاعدة السوفييتية بعض الأوامر أخيراً، فأرسل القادة اليتيمين عسكريتين مع الجنود الذين لم تعد هناك حاجة إليهم.

كثرت الأساطير عن هذه الليلة، تُنمَّق وفقاً للمؤلف وجدول أعماله، إذ يروي بعض تلك الأساطير أن (مئات) المتظاهرين (اقتحموا) المبنى، وبعضها الآخر يروي أن الحراس تترسوا على النافذة مشهرين الـ AK-47 على الحشد، وعلى استعداد لإطلاق النار والقتل. وفي إحدى الروايات أن الضابط الروسي لُوَّح بمسدس في الخارج، أو في أعلى الدرج إلى الطابق الثاني، يحدق بالحشد المندفع ليصل نحوه.

لم يحدث شيء مثير في تلك الليلة، وكل ما حدث طغت عليه أحداث أكثر أهمية بكثير بدأت تتكشف في برلين، ومن ذلك استقالة اللجنة الأمنية في الحزب الشيوعي، واعتقال إريك هونيكر، واستقالة إيغون كرينز في اليوم التالي، ليفسح المجال لأول الزعماء غير الشيوعيين في تاريخ ألمانيا الشرقية.

كان دور المقدّم بوتين في الأحداث المحيطة التي حلت بألمانيا الشرقية عملاً صغيراً في وجه الشكوك، إن لم يكن الخطر. للحظة عابرة، كان في الواقع ضابط مخابرات يقف وحده في الدفاع عن بلاده، رجلاً واحداً يستطيع أن يؤثر في مسار التاريخ- في ألمانيا، لا أقل- تماماً كما تخيّل حين كان شاباً قبل عقدين من الزمن؛ لقد تصرف بهدوء وعزيمة رواقية، وتجنب الخرق الأمني وسفك الدماء أيضاً، ومع ذلك لم يعترف أحد بما فعل في تلك الليلة، لا ثناء، ولا أية ميدالية؛ موسكو صامتة، تلك العبارة التي ظلت تطارده سنوات بعد ذلك. أحس في تلك الليلة أن حياته المهنية كانت على وشك الانتهاء، وكذلك بلاده.